مغلق
أو خارج نطاق التغطية

المكتبة الوطنية الجزائرية 2016.
ردمك : 978-9931-9258-7-3
الإيداع القانوني : السداسي الثاني، 2016

الناشر : © **دار الكلمة للنشر والتوزيع**
البريد الإلكتروني : darelkalima@gmail.com
عنوان الكتاب : **مغلق أوخارج نطاق التغطية**
الكاتب : الخيرشوار
الطبعة: الأولى
تصميم الغلاف: إبراهيم ينينه

الخير شوار

مغلق
أو خارج نطاق التغطية

قصص

للنشر والتوزيع

تقديم
السعيد بوطاجين

أشعر دائما بغبطة كبيرة عندما أقرأ للخير شوار، كإعلامي ومحقق وروائي وقاصّ يقدّرعمله وحدوده، وقد ظللت أعتبره هبة من الخالق منذ مجموعته القصصية الأولى التي اختار لها عنوان: «زمن المكاء»، ليس لأنه أفضل من الآخرين وأرقى معرفيا وسرديا، إنما لأنه يكتب جيدا وبوقار الساقية، دون أيّ ادعاء أو استعلاء، مثلما يحدث في هذا العالم الذي يعتبر فعل الكتابة نبوّة، شيئا ما يشبه الكتب المنزلة من السماء الثامنة.

هناك أمر آخر أرى أن الإشارة إليه ضرورية في ظل تكريس ما يشبه الألوهية في أوساط الكتّاب. ثمة من يعتقد خطأ أنه يكتب قضايا يقينية لا يمكن مناقشتها لأنها مصدر ومرجع، كتابات مقدسة لا يمسها إلاّ المطهرون. أمّا الخير شوار، كما أعرفه من سنين خلت، فيكتب بهدوء وحياء، مؤمنا بالنسبية وبحركة الوقت، بالتقادم والتجاوز، وبهذه الحلقية العظيمة التي لا يمكن أن نكون من دونها سوى وهم كبير يؤسس لوهم أكبر سيأتي على العقل. الخيّر شوّار من هذا النوع النادر الذي يستحي من كتاباته فلا يتحدث عنها.

أجد أن هذا الكاتب غاية في النبل. يؤلّف بنوع من التواضع الذي يبلغ درجة الانمحاء أمام الكون والتجارب الكبيرة، أمام الأشياء الصغيرة التي لا تبلغها المدارك التي تسافر بعيدا لاستيراد موضوعات غيرية ورؤى ليست

لها. إنّه كاتب يريد تحقيق ذاته انطلاقا منها ومن محيطها الخارجي، ومن العلامات التي شكلتها عبر الوقت، وهو إذ يكتب، يؤسس دائما على مرجعيات ذات علاقة بكيانه وهويته. الهويات ليست قاتلة عندما تؤسس على الوعي، إن لم تكن جوهر الكتابة برمتها، عكس ما ذهبت إليه بعض المقاربات الواهمة للحداثة التي لا تقدّر السياق والذات والتنوّع الخلاق، دون عصبية، ودون تقديس المرجع.

من المؤكد أن مجموعة:» مغلق أوخارج نطاق التغطية» تستحق تقديما يليق بمقامها، كما أكّدت للكاتب والناشر اللذين طلبا مني بإلحاح كتابة هذا التقديم، بيد أن ذلك يستدعي دراسة نقدية مفصلة تكشف عن الخصوصية الدقيقة للسرد ومساره، ولمجموع مكونات هذه النصوص اللافتة من حيث إنها تمثل تجربة فيها كثير من النباهة والعبقرية، ثم إن الكاتب فوق هذا التقديم الذي سيكتفي بالإشارة إلى جزء بسيط من جهده ومنظوره وطريقة كتابته.

لاحظت، قبل الحديث عن المجموعة، عودا على بدء، انتقالا من الرواية إلى القصة القصيرة التي ابتدأ بها منذ قرابة عقدين، وهذا أمر نادر في المنجز السردي العربي لأسباب لها مسوّغاتها الموضوعية وغير الموضوعية في آن واحد. أمّا هذه المجموعة فتفتح مجالا لطرح سؤال من نوع: هل يعتبر الروائيون القصة القصيرة عارا؟ أو شيئا لا شأن له؟ وما دور النقد في تكريس هذا التوجه المتواتر في السنين الأخيرة؟

القصص القصيرة الواردة في هذا الكتاب تجيب على السؤال بطريقة ما. الخير شوار يكتب النص الروائي بالمسؤولية ذاتها التي يكتب بها القصة القصيرة، وهو يعي جيدا لمية ذلك لأنه يجتهد في الجنسيين دون مفاضلة واهية، ودون أي تمييز، وبالمعجم المناسب الذي ظل ينحته من محيط الشخصيات ومستوياتها، وقد يعود ذلك، في الأساس، إلى المعاينات الفعلية التي أثثها الخيال، أي إلى التجارب الواقعية التي بنى عليها نصوصه، ببعض التنميق المركب الذي وسم الحكاية والجملة السردية.

أتصوّر، دون أي مبالغة، أن هذه المجموعة القصصية بذلت جهدا عظيما لتصل إلى هذا الجمال الراقي، وبهذه الطريقة الساحرة التي تذكّرنا، في حالات كثيرة، بأنفسنا وبواقعنا الذي طالما تركناه جانبا لاهتمامنا بنفسية الآخر وواقعه وإرثه ونواميسه ورؤيته للعالم. لقد أصبحت الحداثة العربية، كما هي متداولة في بعض الفهم، شيئا يتعذر فهمه لأنه يقوم بتصدير القارئ وتغريبه، أو بمحوه من خارطة السرد. في حين تسعى هذه القصص إلى استرجاع المتلقي وتوطين المعرفة السردية بوعي، وهذا انتصار أوّل على المفهوم المتواتر، أي على الكتابة للآخرين، شكلا ومضمونا ولغة ورؤية.

شخصيات المجموعة محلية جدا، ومثيرة أيضا. إنها من ذلك النوع الذي قد لا ننتبه إليه عندما تجرفنا الأفكار والأيديولوجيات الكبيرة الوافدة إلينا من حضارات ومدن بعيدة. الشخصيات كحكاياتها ومآسيها، لكنها تحمل قيّما إنسانية وعمقا بيّنا. ذلك لأن الكاتب ينظر بالعقل إلى المادة السردية وكيفية نقلها بالشكل اللائق، دون أن

يكون صورة مشوّهة لقراءاته، أو امتدادا آليا لكتابات الآخرين وعوالمهم الخاصة التي أفرزتها سياقات عينية ليست سياقاتنا، وأحداث ليست أحداثنا، وحالات ليست حالاتنا، وعلامات ليست بالضرورة علاماتنا التي تحمل زادا دلاليا خاصا يتعذر إيجاده في منظومة العلامات الأخرى، دون استثناء: للبؤس العربي لون وطعم ومعجم وشخصية.

القصص كلها تحيل على هذا الفهم الدقيق للخصوصية النيّرة التي تأتي بإضافة، دون الوقوع في ما وقعت فيه «الهويات القاتلة»، أو ما سميّ كذلك، مع أن أغلب الكتابات القديمة والجديدة جدا، في جوهرها، ليست سوى تكريس لافت لهذا المنحى المركزي العام، رغم الادعاءات التي تذهب عكس ذلك، سواء عن علم أو عن جهل. لا توجد في هذا العالم كتابات لا هوية لها، ما عدا إن كانت لا شيء، مجرد تهويمات وسفاسف لا تعي حقيقتها ووظيفتها.

كتب الخير شوار هذه التحف ببصيرة، وبروح مدركة لمحيطها، وقد سعى إلى تحرير شخصياته من سلطة الأنا تفاديا لأي إسقاط أو تنميط، ولأي تخطيط معياري يجعلها صورة له، ما أكسبها استقلالية واضحة تعكسها مستويات التفكير والتعبير التي تفادت الأدلجة والإسقاط، وهذا نجاح في حد ذاته، مع أن الكاتب أدرك المسألة من تجاربه الأولى فسعى إلى الفصل بين الكاتب والسارد والشخصية.

من المهمّ الإشارة إلى الأجواء والأماكن والشخصيات المرجعية: الأجواء الحميمة التي تشبهنا، القرى والجبال

والتلال والمدن، الأماكن التي نعرفها، حتى في التشكيل المغالي لها، الشخصيات التي عشنا معها أو عرفناها، في الحكاية الشعبية والخرافية، الغول والعفريت وما تناقلته ذاكرة الأجداد، ثم هذه الإحالات المكثفة على الموروث الإنساني بأنواعه: قصة «انتقام شهرزاد» عيّنة، إضافة إلى الاشتغال الواضح على المسائل التقنية والسردية، كما يبدو، على سبيل التمثيل، في قصة: «الذي أكلته الرطوبة»، وغيرها من القصص التي سعت إلى تحديث طرائق السرد، ليس كموضة أو ترف ذهني عابث، بل لأغراض جمالية ووظيفية بحتة.

أجد في مجموعة «مغلق أو خارج نطاق التغطية» جهدا كبيرا يستحق التنويه والاهتمام. القصص أصيلة ومنفتحة على التجربة الإنسانية، رغم ما يبدو عليها من محلية. هذا النوع من السرد هو الذي يمكنه أن يكون تمثيليا لأنه ينطلق من بيئته، دون أن يكون منحسرا أو منغلقا على نفسه، ما قد يتسبب في محدوديته وعدم قدرته على اختراق الحدود اللسانية. هنيئا للكاتب وللناشر والقارئ الذي سيجد متعة في هذا المنجز الجديد لكاتب لا يدّعي شيئا.

المنستير، تونس

2016.8.18

حافة الجبل

يدان صغيرتان مقربتان من الفم.. الأصابع منتفخة جراء صقيع الشتاء.. الطفل يلمح زميله، فؤاد بن سعيدي قادما من بعيد، داخل قشابية بالية.. عندما التقى به، مد له يده اليسرى، فقال فؤاد:

-هل أنت طفلة؟.. البنات وحدهن يصافحن باليد اليسرى..

شعر مراد سلماني بخجل، نسي من خلاله صقيع ذلك الصباح بعض الوقت، لكنه حاول أن ينسي زميله هذا الموقف بتوجيه الحديث إلى موضوع آخر، فأراد أن يكلمه عن الفرض المنزلي، لكن فؤاد الذي ضايقه الموضوع، قال دون أن يكمل مراد كلامه:

-هل شاهدت حلقة مسلسل «الفأر النبيل» في قناة الرسوم المتحركة؟

- نحن لا نملك هذه القناة، ثم أن أبي يمنعنا من مشاهدة التلفزيون.

صقيع الشتاء الذي أنزل الحرارة إلى ما دون الصفر، لم يمنع الشمس بأن ترسل أشعتها على تلك الأجساد الصغيرة، والأرض مغطاة بقشرة بيضاء تشبه الثلج.

قرية «عين المعقال» تعودت على ذلك في ذلك الفصل..

السكان الذين حرموا من الغاز تعودوا على البرد.. أصابع الأطفال تقاوم بالانتفاخ، وبتغيير لون البشرة إلى الأزرق.

لم يحن وقت الدخول إلى القسم بعد، وجد مراد الجو مهيئا للنظر إلى الجبال.. وعين المعقال بنيت على تل وتحيط بها الجبال من كل جهة.. أخذ مراد ينظر إلى الجبل الأزرق.. وقال لزميله فؤاد:

-ألا تعلم بأن ذلك الجبل الأزرق البعيد يسكنه الغول؟

-ومن أخبرك بذلك؟

-أمي، وقالت بأن الغول ينزل ليلا ليتجول في شوارع القرية.

رأى مراد الخوف في عيني صديقه، وقد أخذ ينظر إليهما لكنه سرعان ما نسي.. وتبع حبل تفكيره.

لم يذهب بعيدا، عاد بسرعة مع الجرس.. دخل وزملاءه الساحة.. دخل الكل إلا هم.. هل غاب المعلم؟.. بدأ الحديث يتوحد: «سيدي ما جاش.. سيدي ما جاش».. العبارة ممزوجة بفرحة خفية.. لم يدم الانتظار طويلا.. أمروا بالخروج منظمين مثلما دخلوا.. تعددت أقوال الأطفال ونواياهم: «سوف أعود إلى البيت باكرا.. سوف أذهب مع أمي إلى بيت خالي..سوف أذهب إلى الملعب منتصف النهار..».

أما الطفل مراد سلماني فقد غاص في تفكير طالما شغله.. أخذ ينظر إلى أشعة الشمس الصفراء، لم يستطع التركيز.. حول نظره إلى الجبال البعيدة.. نظر إلى الجبل الأزرق، وقال في نفسه: «تري ماذا يفعل الغول في هذه اللحظة؟.. إنه يأكل الأطفال الذين حملهم معه ليلة البارحة.. لقد سمعت بكاء بعضهم.. لا.. لا.. ربما يكون قد أكلهم في آخر الليل.. قد يكون نائما في هذه اللحظة».

كيف هو شكل الغول يا ترى؟.. لقد سمع عن تلك الأميرة التي تسكن على بعد سبع جبال، وسبعة من الغيلان.. إذن لا يوجد غول واحد، هل هؤلاء أشقاؤه؟.. بدأ يستعيد صورة الغول التي صنعها له في خياله.. رجل ضخم الجثة ذو أثواب ممزقة.. قبيح المنظر.. له عين واحدة في جبهته.. أكلته المفضلة الأطفال.

هذا الغول يحول بينه وبين الجبل.. ذلك الكيان الذي يسكن أعماقه.. الذي وضع على حافة الدنيا.. سوف يذهب إليه مهما كان الأمر ليعرف ما وراء الجبل.. كثيرا ما شغله عن واقعه ويتكرر في أحلامه وكوابيسه بشكل شبه يومي.. ولم يجد من يشاركه هواجسه..

امتلأ رأس مراد بهواجس شتى.. لم يعد يميز بين أحلامه وكوابيسه.. لم يكن يدري بما يجري حوله.. أصوات الأطفال تتعالى في هامش تفكيره.. وهو يستعيد الفكرة

التي راودته صباحا.. بدأت أشعة الشمس تتغلب على قوة الصقيع.. انتعشت الأجساد الصغيرة أكثر واقترح بعض الأطفال الذهاب إلى ملعب كرة القدم الصغير.. لم يكن يهتم بتلك اللعبة على غير عادة أقرانه..

أخذ ينظر إلى الجبال المحيطة بقرية عين المعقال الواحد تلو الآخر.. الجبل.. ذلك الجبل.. ترى من بناه؟.. هل صحيح أن الجبل يبتعد عنك إذا ما حاولت الذهاب إليه؟.. ماذا يوجد في تلك البقعة الحمراء؟.. قيل لي بأن الجبل الأزرق ذاك هو مأوى الغول، لكني رأيت الدخان يتصاعد من تلك القمة القريبة.. هل كان الأمر وليمة أطفال، أم أن حريقا أشعله بعض الرعاة كما قيل لي؟.. كان ذلك في ليلة البارحة.. كان حلما بل كابوسا مرعبا.. أخذت أصرخ.. حتى فزع من كان بالبيت.. أشعر بوهن في مفاصلي.. رأيت الجبل، نعم رأيته مثلما لم أره من قبل.. رأيته عملاقا.. وكنت في حضرته قزما.. رأيتني أشبه السنفور.. بل أصبحت سنفورا مكلفا بمهمة شبه مستحيلة.. أرسلني بابا سنفور إلى هناك لوحدي..

صارعت الرياح.. تسلقت الصخور.. الرياح قوية.. بل عاصفة.. اقتلعت الأشجار.. رأيت الرعاة ومواشيهم في مهب العاصفة.. الكلاب تنبح، والذئاب تعوي.. الكلاب تتحول إلى حيوانات ضخمة تنبعث من أفواهها النيران..

عواء الذئاب يتحول إلى بكاء.. البكاء في كل مكان.. رأيت النسوة يندبن وجوههن ويعددن.. كنت في جنازة.. الجثة مطروحة في قلب الفناء.. تحولت النسوة إلى كلاب سوداء والرجال إلى ذئاب بأذناب خشبية تلتهمها النيران.. النار كانت مشتعلة في كل مكان سمعت صفارات إنذارالحماية المدنية.. اختنق صوتي.. دخلت في متاهة.. أصبحت أعدو في كل مكان.. لم أجد مخرجا.

حدقت في جسدي جيدا.. رأيتني سنفورا، وتذكرت بأني في الجبل أريد قمته.. شعرت بخفة في جسدي أنا أعبر تلك الصخور الكبيرة دون تعب.. وصلت فجأة إلى القمة.. كان الفضول يقتلني لمعرفة ما وراء تلك القمة العالية.. فقدت السيطرة على جسمي.. انعدمت الرؤية.. أصبحت في هاوية.. أخذت أسقط وأسقط.. وأسقط.. ولم أعلم إلا وأنا أنهض من نومي، والعرق يبلل فراشي.

انتبه مراد سلماني إلى نفسه.. الأطفال تفرقوا.. لم يبق أمامه إلا البعض، ممن اختاروا اللعب على قارعة الطريق.. بجنب المدرسة..

عاد مرة أخرى ليحدق في الجبل.. لماذا يا ترى يأسره إلى هذا الحد.. ويتكرر في أحلامه وكوابيسه.. ترى هل فعلا أن الحياة محصورة بين تلك الجبال؟.. وماذا يوجد بعد الجبل يا ترى.. هل يبدأ عالم آخر من هناك؟.. هل هو

العدم؟.. وما شكل العدم يا ترى؟.

سيطرت تلك الهواجس على تفكيره.. سوف يذهب إلى هناك.. إلى النهاية حيث ينتهي عالم ويبدأ عالم آخر، وقد تكون النهاية.. وهو مقتنع أن الجبل وضع على حافة الكون.

أخذت الأسئلة ترهقه، وعاد إلى التفكير في السفر هناك، ويصعد إلى الجبل..

وجد الجو مناسبا لتنفيذ الفكرة التي سيطرت على رأسه الصغير كثيرا.. مشمسا مثلما لم يكن منذ بداية الشتاء، وفصل الصقيع الطويل.

نضجت الفكرة في رأسه، وهو يبحث عن زميله، فؤاد بن سعيدي وسط الأطفال المتبقين.. لقد وجده.. وانتزعه بصعوبة من وسط اللاعبين.

عندما انفرد به، سلمه محفظته.. وهو يقول له:

-خذ هذه إلى البيت، لأني ذاهب وقد لا أعود.

قال له فؤاد والحيرة تأخذه:

-أين ستذهب أيها المجنون؟

سأذهب إلى هناك.. إلى النهاية.. إلى ما وراء الجبل.

تركه في حيرته وانطلق، انتبه فؤاد إلى صراخ زملائه، الذين طلبوا منه العودة إلى الملعب.. أسرع فؤاد بالعودة إلى لعبته، وقد نسي أمرزميله مراد سلماني الذي ذهب إلى ما وراء الجبل، وقد بدأ يغيب عن الأعين.

فيفري 2004

حضن لجميلة

الوقت مطفأة للنسيان.. يحمل ألوان الطيف، ويمضي إلى المنتهى.. هي تتسربل بذكريات ممزقة في كل موضع، مسكونة بطفولة أبدية.. تقول نفسها بكثير من الترقب العنيف، والحذر الشديد.

تحدق في السقف حينا، وحينا تداعب الأنامل فجرا قد يجيء مع نقرات الماء، الذي يسقط دون ملل.. البلاط قلب بشري تتقاذفه الذكريات والهواجس.. نقاط سوداء جزر هجرتها السفن.. تترقب العابرين بذاكرة معطوبة.

تعود من رحلتها التاسعة، سندبادا ضيع سفنه، وانتظر الهاوية التي لم تأت.. يعاودها التساؤل.. بحر هواجسها ينذر بإعصار لا يبقي على شيء.

تمد يدها إلى الدرج.. تستخرج دميتها التي لم تغير فستانها الأحمر منذ سنين.. تحدق في الدمية، وتنفجر في وجهها:

-أيتها الحمقاء.. لماذا هذا الصمت الذي يقتل ببطء؟

يسود الصمت، صمت ما بعد منتصف الليل، ولم تعد تسمع إلا إلى دقات الساعة الحائطية، ونقرات الحنفية من حين لحين.

تحس بالدقات سكاكين تمزق أحشاءها.. تستعيد أغنيتها القديمة: «ما تبكيش يا جميلة، وما تخليش دمعك يهون

.. أي والله نجبرلك حيلة ونعملك تلفون».

تغني في صمت.. تشعر بملوحة في فمها.. تمد يدها اليسرى لتمسح الدموع.. وتبقى اليد اليمنى تمسك بالدمية.. تواصل حديثها والدمية جامدة .. عيناها الزرقاوان تعكسان ضوء المصباح ..والرموش تقاوم الانقراض..

-اخبريني.. كلميني.. لماذا هذا الصمت يا حمقاء؟

تضع فم الدمية على أذنها، وتنتظر كلاما لا يجيء.. تشعر برغبة في تمزيق جسدها، لتخرج ذلك المارد الذي يسكنها.

تمتد يدها إلى ملحق السرير.. تستخرج مرآة صغيرة.. وتستعيد مع حركة يدها عبارة كانت ترددها: «مرآتي يا مرآتي.. من أجمل الجميلات؟».. تترك المرآة لمصيرها، وتمسك بكلتا يديها وجهها.. تضغط بأصابعها، وفي كل حركة هاجس يطاردها بسكين مسموم.

-كنت أنيستي في أوقات الشدة.. أين صوتك الذي كنت أسمعه؟.. كنت تكلمينني وحدي رغم أن الجميع لا يعترف بذلك.. «جميلة» ذهب كل الوحوش وبقيت في بهاءك الأزلي تقاومين الزمن.. أتذكرين أول مرة التقينا فيها؟.. لقد أحببتك من النظرة الأولى، وكنت وراء الزجاج، في واجهة ذلك المحل.. هل تذكرين؟.

تضعها جانبا.. تسند رأسها إلى الوسادة.. الدمية تقابلها.. تحدق فيها.. دقات الساعة تشعر بالزمن.. الحنفية المعطوبة تحتفل بالماء على طريقتها.. منذ يومين لم ينقطع الماء على غير العادة.

-أشعر يا حبيبتي بتعبك.. لقد كان يومك شاقا لا شك، وأنت في وقت الامتحان.. كيف كانت إجابتك؟.. لا لا تخبريني الآن، نامي يا حبيبتي وفي الصباح سنتكلم.

تمد يدها لتطفئ الضوء، تنهض مفزوعة كما لو تذكرت شيئا مهما.. تستعيد تلك اللحظة المركزية، وتلتفت إلى جميلة قائلة لها:

-أبوك.. طالت غيبته..

لم تنتظر جوابا، وهي تحوم حول تلك اللحظة.. كانت يدها ترتعش، وهي تمتد في خجل لتعانق يدا خشنة.. كانا يتجولان في شوارع المدينة، يختلسان سعادة.. امتد بصرها إلى ما وراء زجاج الواجهة، وبقيت تمثالا في مكانها.. سهت عن الكلمات الشاعرة التي كانت تسمعها.. يقطع كلامها منتبها إليها، ثم يقول:

-ماذا حصل؟

تشير بيدها إلى ما وراء الزجاج، ثم تقول: «إنها هي..

هي ذي جميلة»، يضحك لطفولتها ويقول: «ستكون لك.. لن تعودي إلى البيت إلا وجميلة ابنتنا في حضنك الساحر» .

تضمها إلى صدرها لأول مرة.. تشعر بدمعة حنان ساخنة على خدها.. وتسمعه يقول:

-هاهي ابنتك جميلة.. لقد وضعتها دون حمل.. ولم يمسسك بشر.

تجيبه بمنطقه، والحنان يتحول إلى فرح عامر:

-ماذا تقول؟.. هل فقدت ذاكرتك؟.. لقد حملتها وهنا على وهن.. وجاءت بعملية قيصرية كما شهدت، وكدت أموت قبل أن ترى ابنتي النور.

تعود إلى البيت، وجميلة في حضنها.. يطلب منها موعدا آخر، فتقول أن يتصل بها هاتفيا في نهاية الأسبوع المقبل، وستكون بعد خمس دقائق من ذلك بين ذراعيه، قائلة له: «شبيك لبيك».

ينتهي أسبوع ويبتدئ آخر، ثم ينتهي ويبتدئ آخر.. تنتهي أسابيع، تمر الشهور دون أن يتصل بها.. تبقى في انتظار الفارس الذي غاب.. تسأل عنه معارفه فلا تعرف من تصدق.

يقال لها إن الفارس المنتظر انتحر.. ويقال إنه نحر

في حاجز سمي بـ «المزيف»، ويقال أيضا إنه حصل على بطاقة أدخلته العالم الجديد، وأنسته التي وعدته بلقاء في نهاية أسبوع مر منذ زمن بعيد.

تشعر بتصدع في جهاز أعصابها.. تفقد السيطرة على ذاتها.. وتغادر عالم المنطق.. ينهض من كان في البيت، يأتي صوت يقول لها:

-لماذا هذا الصراخ في هذه الساعة المتأخرة؟.. ألم تتناولي حبوبك المهدئة؟

يناولونها الدواء بقوة.. تشعر باسترخاء بعد تشنج.. لم تعد تسمع دقات الساعة، ونقرات الحنفية.. تسحب بطريقة آلية جميلة إلى حضنها.. تدندن والدموع في عينيها: «ما تبكيش يا جميلة، وما تخليش دمعك يهون، آي والله نجبرلك حيلة ونعمل لك تلفون»، ثم تلتفت هناك حيث الهاتف لعلها تسمع رنينا.

العاصمة مارس 2004

ما وراء التغطية

«إن خط مراسلكم مغلق..

أو خارج مجال التغطية..

الرجاء إعادة المحاولة بعد حين»

«من كلام الهواتف»

شعر بالأرض تضيق وتضيق، وهو يتكثف معها.. تحول إلى عبوة مهددة بالانفجار في أية لحظة..

وجد نفسه يحدق في الشمس الملتهبة.. شعر بألم غامض في عينيه، لكنه واصل النظر بشيء من التحدي اليائس.. الشمس تلمع في صلعته، حولتها إلى ما يشبه الشمس الصغيرة، وهو يواجه الأشعة بعينيه.. عادت به الذكرى إلى فكرة نسي مصدرها، تقول إن الشمس حقيقة لا نستطيع التحديق فيها.

شحن نفسه بما يلزم من الإرادة، واستمر في النظر إلى شمس حقيقته.. شمس الزوال متعجرفة.. بدأت إرادته تخمد مع الثواني، شعر بألم في صلعته وفي عينيه.. وضع يديه على عينيه وصلعته تغلي بألف سؤال وسبعة أسئلة..

الهجير يأكل القرية.. والشوارع خالية من المارة.. لم يكن يدري بالعرق يتصبب من جسده والهواجس تأكله أكل الذباب للقمامة.

شعر بحركة غير عادية.. رفع رأسه فوجد قطا أسود.. قال في نفسه: «ماذا لو كان القط عفريتا، يقال إن العفاريت تظهر على شكل قطط بهذا اللون»، ثم قال في نفسه إن القط ليس عفريتا لأنه بظل.

نسي أمر القط وانخرط في ذاته.. تكثف حزنه وما مر به يعود بقوة.. ما الذي أتى به إلى هذه الناحية في هذه الهاجرة؟.. الشوارع خالية.. ظل الشجرة يتقلص مع الزوال.. شعر فجأة بحركة غير طبيعية.. استعاد مشهد القط الأسود.. ربما يكون قد عاد.

التفت فجأة.. رفع عينيه، فوجد رجلا ينظر إليه دون أن يحييه.. كان الرجل يلبس قميصا أصفر، وسروالا أبيض.. ويحمل وردة بلاستيكية.. نظر الرجلان إلى بعضهما في صمت.. عندما زال الحاجز النفسي سأل الواقف الجالس:

-من أنت؟.. لم أرك في مدينتنا قبل؟

-ومن أنت؟.. وماذا تحمل؟

-كما ترى.. طلبت مني أن أحمل وردة حمراء، ولم أجد في مدينتنا إلا الورود البلاستيكية.

-ومن هي؟

-التي أنتظرها.

-ومن تنتظر؟

فتح السؤال شهية صاحب الوردة البلاستيكية للكلام.. أمسك بالوردة، استنشق شذاها المتخيل، وقد نسي فعل الحرارة في جسده، وهو يقول: «لم أكن أصدق أذني عندما كنت في الغرفة الهاتفية، أردت أن أكلم صديقي الحملاوي الذي قضيت معه أياما لا تنسى في الخدمة الوطنية، وما إن طلبت الرقم حتى فاجأتني بصوتها الساحر، وهي تقول: «نظرا لازدحام مؤقت يتعذروصول ندائكم.. الرجاء إعادة المحاولة بعد حين..» عندما سمعت صوتها، لم أنتبه لنفسي وقد سحرني ذلك الصوت.. أخذت أقلده بطريقة مضحكة: «نظرا لازدحام مؤقت لم يصل نداؤكم.. الرجاء إعا....» ولم أكمل الجملة فقد انفجرت ضاحكة... في تلك اللحظة شعرت بسعادة مطلقة.. قالت لي بأن صوتي سحرها، أصرت على لقائي حالا.. وطلبت مني أن أحمل وردة حمراء وأقف في هذه الساحة حتى يتسنى لها معرفتي.

كان الأصلع مذهولا، وهو يقسم في داخله بأن صاحب الوردة البلاستيكية الحمراء، إما أن يكون مجنونا أو مسطولا أو مخمورا، نهض واقترب منه لعله يشم رائحة ما، لكن المفاجأة أذهلته.

رأى حسناء تقترب منهما.. رائحة عطرها تسبقها.. تحمل

مروحة وردية اللون، وترتدي ملابس مثيرة.. اقتربت من صاحب الوردة البلاستيكية، وقالت بصوت مبحوح:

-أنت إذن؟

رد عليها، وهو يطير فرحا أن نعم.. ساد الصمت برهة، ثم مدت يدها له.. وضعا الذراع في الذراع، وقبل أن يسيرا طلب منها مرافقها وهو يستنشق ملء منخاريه الشذا الافتراضي للوردة الاصطناعية: «أعيدي علي تلك الجملة الجميلة التي ترددينها في الهاتف»، فقالت بصوتها المثير: «نظرا لازدحام مؤقت يتعذر وصول ندائكم.. الرجاء إعادة المحاولة بعد حين».

بقي الأصلع وحده يمسح العرق بكفيه، ثم يتحسس صلعته، ويتساءل في نفسه، هل ما يراه حقيقة أم أنه فقد عقله؟، أو كان يكلم الأشباح؟.. فقد القدرة فجأة على الوقوف، فجلس تحت أشعة الشمس الحارقة، ثم تدحرج نحو ظل الشجرة.

بقيت الهواجس تتصارع في داخله.. أصبح يفكر بصوت مسموع، ويتفوه بكلام غامض والهواجس تترجم فوضاه.. ما الذي جاء به إلى هذه الناحية في هذا الوقت؟.. أين المواصلات؟.. بل أين سكان الحي؟..

استعاد صورة الحسناء التي ذهبت مع صاحب الوردة

البلاستيكية، وهي تتكلم بتلك الإثارة.. تأججت هواجسه، ثم خطر في باله أن يبحث عن غرفة هاتفية لحاجة في نفسه.

عندما دخل إلى الغرفة الهاتفية لم يجد رقما في ذاكرته.. تحسس جيبه فلم يجد مفكرة.. فكر في مغادرة الغرفة، ثم قطع تفكيره هاجس يقول: «يجب أن يكون الرقم خاطئا أو مشغولا.. حتى تستمع إلى ذلك الصوت العجيب»، ثم قال في نفسه إن صاحبة الصوت المطلوب ذهبت مع صاحب الوردة البلاستيكية، ثم استطرد قائلا مع نفسه: «لا بد من وجود عدد من الحسناوات يشتغلن بالتناوب على مدار النهار والليل، فلأجرب رقما خاطئا».

وبالصدفة طلب رقما تشكل تلقائيا.. رن الهاتف قليلا، وتفاجأ بمجيب يقول له بعد مقدمة من الكلام البذيء: «أيها الوقح.. إن رقمك مسجل، وسوف تأخذ جزاءك.. لماذا تتلاعب بمشاعر الناس أيها الخنزير الوسـ...»، ولم يدعه الأصلع يكمل الجملة، فقطع الاتصال فورا والعرق يتصبب باردا من كل ناحية في جسده.

بقي مسمرا في الغرفة.. انتبه لنفسه بعد ذلك وتخيل نفسه في البيت الساخن لحمام عتيق.. وجد صعوبة في استيعاب الحالة.. فكر في مغادرة الغرفة، ثم عدل عن الفكرة.

امتدت يده إلى السماعة مرة أخرى، وجرب رقما آخر تلقائيا.. جاءه على الفور صوت يقول له: «إن الرقم الذي طلبتموه خاطئ.. الرجاء الاتصال بمصلحة الاستعلامات رقم 19..» في أثناء ذلك حاول مقاطعتها، وهو يقول: «أهلا.. أيتها الجميلة.. أنت فاتنة حقا.. أنت.. أنـ....»، ولم يظفر بجواب.

انقطع الاتصال... شعر بشلل في مؤخرة رأسه.. وببرودة العرق.. حاول تجاوز الموقف والاتصال مرة أخرى، لكنه شعر بما يشبه الشلل في يديه.. ترك السماعة في غير مكانها وخرج من الغرفة.. مشى على غير هدى.. تفاجأ بصاحب الغرف الهاتفية يقول له : «يا سي محمد... هل نسيت؟.. أين ثمن المكالمة؟..» أعطاه الأصلع الدنانير المطلوبة وهو يعتذر له بإصرار، ثم استقبل شمس الهاجرة بخواطر جريحة.

شعر بالأرض تضيق وتضيق.. وهو يتكثف معها.. تحول إلى عبوة تنذر بالانفجار في أية لحظة.

العاصمة أفريل 2004

عيادة حتشبسوت

كانت جميلة بشكل ساحر، في عينيها عمق وانكسار، استطعت قراءته بسهولة، وكان شعرها بلون الذهب، أعتقد جازما بذلك، رغم أني لم أر منه شعرة واحدة، ففي تلك المرة الوحيدة التي رأتها فيها عيناي، كانت ترتدي خمارا بلون زيتي ممزوج ببعض الخضرة الباهتة وبطريقة لا تدع أية شعرة شاردة عن تلك التشكيلة المخبأة ككنز من تلك الكنوز التي في بطن الأرض من أزمان بعيدة تنتظر من يكتشفها.

ظلت جامدة لمدة دقائق كاملة، مثل التماثيل الرومانية العتيقة. واستغرقت طيلة تلك الدقائق المسروقة من عدّاد الزمن، انظر إليها بدون أي حرج، رغم خجلي الشديد الذي عرفت به منذ طفولتي الأولى، وأنا أعتقد بأنها لا تشعر بوجودي، إلى أن رفعت ناظريها فجأة، بطريقة شبه ميكانيكية في المرآة التي كنت أراها من خلالها، وسرعان ما أعادت عينيها الساحرتين إلى وضعهما السابق وقد بدت الحمرة فجأة على خديها وهي تنتبه لوجودي لأول مرة واستغراقي الكامل في جمالها، مما أعطاها بعدا جماليا إضافيا لأبعادها الجمالية التي لا يشملها الحصر، ثم عادت إلى سابق تسمرها الذي استمر بعد ذلك طويلا كتمثال من تماثيل المعابد العتيقة استحق أن يكون أول عجائب الدنيا السبع.

ساعتها كنت أشكو بعض الصداع النصفي الذي يلازمني طويلا في أوقات التوتر النفسي المزمن، والذي زاد عن حده ودفعني إلى زيارة الطبيب.

كنت في قاعة الانتظار الرجالية للعيادة الطبية، وكانت تلك الفتاة التي لم أعرف لحد الآن اسمها ولا أي شيء يخصها سوى تلك الصورة الساحرة التي بقيت منقوشة في أعماقي، تجلس في قاعة الانتظار النسائية. وكانت مرآة البهو تعكس صورتها.. صورتها لوحدها دون غيرها من مساوئ أو محاسن الصدف، لا أدري.

بقيت تلك الفتاة مسمّرة، كأنها تمثال مهرب من معبد، أو مومياء فرعونية، للفرعونة حتشبسوت صاحبة المعبد الفرعوني الشهير في وادي الملوك، والتي أخذتني حكاية حبها المحرمة مع المهندس سينموت، أو هكذا كان اسمه في تلك المروية التي قرأتها وأنا صغير، ولما خطر ذلك على بالي، واستعدت تلك الحكاية الحزينة أسميت حبيبتي تلك التي لم أكلمها ولم أعرفها «حتشبسوت».

كنت أتأمل حتشبسوت من وراء المرآة بكل زوايا وجهها وبكل جوارحي وكأني كنت بصدد رسمها بالأبرة الحادة على جدار قلبي الداخلي ولا أبالي بالدم والألم، وأتحسس أنفساها الصاعدة، وعندها تذكرت تلك الرواية التي اشتريتها من محل للكتب المستعملة الذي شكّل ثروة

مطالعتي الأولى، تلك الرواية التي كان عنوانها غريبا «الجميلات النائمات» لكاتب ياباني نال أعلى الجوائز الأدبية، ثم انتحر في قمة مجده الأدبي، وأخذت وقتا طويلا لحفظ اسمه «ياسوناري كاواباتا». وكانت لي حكاية مع تلك الرواية التي جاءت بتقديم من الكاتب الكولومبي الأشهر «غابريال غارسيا ماركيز»، وهو يستعيد رحلة بين مطار شارل دوغول بباريس وأحد مطارات نيويورك بالطائرة، عندما كان يتأمل تلك الحسناء النائمة التي ذكّرته بدوره بمضمون رواية كاواباتا الفائز بجائزة نوبل للآداب سنة 1968، لينتحر بعد ذلك بطريقة استعراضية، والرواية تلك تحكي بطريقة غريبة قصة بيت / نزل، يرتاده شيوخ في أرذل العمر، ينامون مع فتيات عاريات دون أن يلمسوهن ولا حق لهم معهن إلا الحلم، ولا يدخلون النزل إلا وتلك الحسناوات قد أخذهن النوم، ثم يغادرون النزل قبل أن يستيقظن.

لقد قرأت تقديم ماركيز، ثم قرأت الرواية أكثر من مرة، وأعدت قراءة تقديم ماركيز، ثم قرأته بشكل مختلف وبتفاصيل أكثر في مجموعته القصصية «الحب وشياطين أخرى». وقبل الآن بسنوات، قرأت رواية ماركيز الأخيرة على ما أعتقد، «عن غانياتي العزيزات»، أو بترجمة قريبة من هذه، في الشبكة العنكبوتية، وكأني بغارسيا ماركيز

الذي لم تقتله روايته القنبلة «مائة عام من العزلة»، قد قضت عليه تلك الرواية اليابانية الصغيرة، واستولت على تفكيره بشكل كبير.

كنت أفكر في كل هذا، وأنا أتأمل حتشبسوت، وهي ثابتة لا تتحرك، وقد نسيت آلام الشقيقة. ومع استغراقي في التفكير إلى درجة الحلول بتعبير المتصوفة، بدأت أحس بأني أتقدم في السن، وكأني بطل رواية ماركيز تلك، وهو يحتفل بعيد ميلاده التسعين، أو أحد أبطال رواية كاواباتا، وهو على سرير بيت الجميلات النائمات، ولم انتبه إلا والممرضة تسألني عن اسمي وأنا أتلعثم كعادتي لمعاناتي مع الخجل المزمن وأقول: « اسمي؟.. ماركيز.. عفوا أنا.. أنا»، ثم هممت بدخول غرفة الطبيب لأخرج، ولا أجد أثرا لحتشبسوت تلك، التي بدأت أشك حتى في وجودها، فربما كانت مجرد وهم من أوهامي، أو من تداعيات أوجاع الشقيقة التي كانت تفصل رأسي إلى شطرين.

Game over

كانت سارة تشبه الدمى بشكل عجيب.. شعرها ذهبي ووجهها دائري، وعيناها الزرقاوان تشبهان كريتين تلمعان، وقوامها دُميوي ساحر عجيب، حتى يحتار الغريب الذي يراها إن كانت من البشر أو من الدمى المتطورة، وكانت أمها تحرص على تزيينها بطريقة الدمى الجميلة، بالعناية بتفاصيل تزيينها حتى أصبح ذلك الأمر هوايتها الأولى ولعبتها المفضلة، أما سامي شقيقها فقد كان يعشق اللعب ولا يتصور حياة دون لهو، ولم تكن لعبته المفضلة إلا شقيقته الصغرى تلك، صاحبة الأربع سنوات، التي كانت تكبر مع الأيام وكأنها دمية كبر حجمها شيئا فشيئا بالنفخ فيها.

وفي يوم من الأيام.. زينت الوالدة سارة، وهندمتها كدمية متجددة، ثم لعب بها شقيقها سامي وقتا طويلا ولم يمّل من هذه اللعبة التي تتجدد باستمرار وتكبر مع الأيام، وتغيّر هندامها بطريقة لا يجدها في أي دمية أخرى في الدنيا، وعند منتصف اليوم، خرجت الوالدة وولدها سامي ولعبتهما الطفلة سارة، في جولة بين أروقة سوق اللعب المختلفة الأشكال والألوان، صال الجمع بين تلك الأروقة حتى أصابهم الملل، لعلهم يشترون دمية جميلة للطفلة سارة، ولما كادت الوالدة وولدها سامي ييأسان من ذلك، وقع بصر الجميع على دمية من نوع خاص معروضة في

متجر صغير بجانب ذلك الرواق الضخم المملوء بالدمى المستوردة من كل بقاع الدنيا.

كانت الدمية المعروضة في ذلك المتجر الصغير ذات شعر ذهبي ووجه دائري، وعيناها الزرقاوين تشبهان كريتين تلمعان، وقوام ساحر عجيب، والأغرب من كل ذلك أنها تشبه سارة، تلك الطفلة الصغيرة التي تشبه الدمى لحد التطابق، وكأن صانع تلك الدمية المعروضة في المتجر كان يقلد الطفلة سارة عندما فعل ذلك، ووصلت درجة التطابق إلى حد أنه لو وضعت تلك الدمية إلى جانب الطفلة سارة، لاحتار المشاهد أيهما الدمية وأيهما الطفلة.

لا يذكر أحد، من هو أول من وقعت عيناه على الدمية المعجزة المعروضة في المتجر، تلك الدمية التي اتفق الجميع ضمنيا على وجوب شرائها مهما كان ثمنها، ومن حسن الحظ أن والدة سارة وسامي كانت تمتلك الثمن الكافي لشراء دمية باهظة الثمن، وبذلك أصبحت الدمية ملك الطفلة سارة التي ينظر إليها الجميع على أساس أنها دمية لا طفلة من لحم ودم، وعاد الجميع إلى البيت فرحين بذلك الفرد الجديد الذي انظم فجأة إلى الأسرة الصغيرة، تلك الدمية الجديدة التي سميت بشكل تلقائي سارة، وأصبحت للأسرة الصغيرة دميتان وسارتان في الوقت نفسه، وكان سامي يلعب بشقيقته سارة، دميته

المفضلة وكانت سارة الطفلة الدمية تلعب بالدمية سارة، واستمرت تلك اللعبة المتعدية وقتا طويلا، وقد حرصت الأم على أن تزين ابنتها سارة بنفس الطريقة التي تتزين بها الدمية الصغيرة.. لون الملابس نفسه، نوع القماش نفسه، وحتى طريقة تسريحة الشعر متطابقة بشكل عجيب، واستمرت سارة بذلك الهندام إلى أن كانت نهاية تلك اللعبة، وقبل ذلك كانت الأم تفكر في طريقة تغيّر من خلالها طريقة تزيين ابنتها مع تغيير في ملابس وشكل الدمية حتى تظل متطابقة مع الطفلة، مع فارق واحد هو أن الطفلة كانت تكبر شيئا فشيئا وبمقابل ذلك ظلت الدمية سارة ثابتة على ذلك الحجم الذي لا يتغيّر.

وقبل نهاية اللعبة كان أفراد الأسرة يحرصون على إجلاس الدمية سارة بجانب دمية شقيقها سامي، فيحار المشاهد الأجنبي من هي الدمية الآدمية من الدمية المصنعية، ولو أن شكلهما بدأ يختلف قليلا ولا يعرف ذلك إلا أفراد الأسرة الصغيرة، وبدأ سامي يغرم بالدميتين معا وأحيانا يغار من الدمية الصغرى سارة، لأن الدمية الكبرى (سارة هي الأخرى) مغرمة بها، رغم أن سارة الكبرى هي دميته التي لم يشتريها بل أنجبتها له أمه، أما كيف انتهت تلك اللعبة التي بدأت بريئة وعجيبة، فقد قيل أن ذلك جرى بطريقة دموية بشعة، فقد كانت ساعتها الأم في الحمام

المنزلي والأب غائبا، ولما عاد سامي إلى البيت وهو يبحث عن اللعبتين كالعادة، وجد أن شقيقته سارة لعبته الكبرى، كانت قد فككت بطريقة طفولية عنيفة، فيها رغبة داخلية دفينة في العنف دميتها سارة الصغرى، فلم يصدق سامي ما رأته عيناه، وكانت الدمية سارة الصغرى مفككة بشكل لم يره من قبل، بل لم يخطر على باله.. فقد كان الرأس هنا بشعره الذهبي ووجهه الدائري وكانت الأطراف هناك، وبينما هو يتأمل المشهد بدهشة كانت شقيقته سارة نائمة، ولم تلتفت لوجود شقيقها.

ساعتها خطرت على بال سامي فكرة بشكل تلقائي، فذهب بدون تردد إلى المطبخ وجاء بسكين كبير اعتاد على رؤيته هناك، ثم أخذ يقطع أجزاء شقيقته النائمة، ففصل الرأس عن الجسد وهم بفصل الذراعين، قبل أن تخرج الأم من الحمّام وتكتشف تلك الكارثة.. لم يكن سامي يريد قتل أخته بتلك الطريقة البشعة، لكنه أراد أن يفعل بها ما فعلته هي بدميتها سارة الصغيرة.. كان يفكر في أن ما فعل بالسكين مجرد لعبة، كان يعتقد بأنه يلعب مع شقيقته مثلما لعبت بدميتها، وما غاب عن سامي أن ما فعله بذلك السكين الكبير الذي أتى به من المطبخ كان نهاية اللعبة.

الطائر في عشه الأخير

كان الوجه مبتسما بطريقة دائمة لا كلل ولا ملل فيها، وكانت الأرجل الأمامية متأهبة، والأجنحة في وضع الطيران، والسماء صافية لا سحابة في زرقتها اللامتناهية، وليس في المجال إلا ذلك البناء الذي يشبه القبة، وقد يكون كذلك، والمجال كله بما فيه هو خلاصة صورة معلقة على حائط إسمنتي، كان الجد قد هرَّبها جده من حائط عتيق، والذي ما إن يذكره حتى يتشمم رائحة الصلصال تعيد إليه حيويته رغم أعراض الربو والرطوبة والسنين، معتبرا تلك الصورة رغم معارضة أبنائه تحفة أثرية جميلة، وهي آخر ما تبقى من ذكريات الحيطان الترابية المباركة، التي فرّط فيها أهلها، باستسلامهم لغول الاسمنت الذي أتى على الأخضر واليابس وما بينهما .

كان الجد يجلس مقابلا ذلك الحائط الذي يحمل تلك الصورة المقدسة، وعند جناحه يتشبث الطفل مراد بن لحمامصي، وينكمش شاعرا ببعض البرد في ليلة صقيعية، وكان كجده مهووسا بتلك الصورة وهو يتشربها بتفاصيلها الدقيقة، ويسأل جده وكل من يراه أمامه بطريقة مملة، السؤال الذي يكرره في كل مرة: ماذا تمثل تلك الصورة؟، ولماذا لا يوجد ما يقابلها في الواقع؟، ومن هو المصور الذي التقطها؟، وهل فعل ذلك بكاميرا الهاتف المحمول أم بكاميرا رقمية كبيرة؟، وكان الجد

الذي لا يفهم الكثير في تلك الأسئلة، وما شابهها يؤكد في إجاباته أن الصورة تمثل طائر البراق الذي حمل الرسول صلى الله عليه وسلم على ظهره من مكة المكرمة إلى القدس الشريف في لمح من البصر، ثم طار به في لمح آخر إلى السماء السابعة.

ومثلما كانت صورة البراق مصيرية في حياة الجد، فلم تكن بالمقابل عابرة في حياة الحفيد مراد بن لحمامصي، بل أصبحت حياته كلها تقريبا، فقد كان يتأملها في كل حين، وتتشكل له في الأحلام بطرق مختلفة، ولما كان يلح على أصدقائه من الأطفال بل يحدثوه ويحدثهم عن ذلك الطائر الذي يسكنه، فقد أصبحوا يطلقون عليه اسم البراق، وهم يتندرون: ماذا قلت يا براق؟، أين ذهبت يا براق؟، أقبل يا براق..

كل تلك الصور كانت تدور في مخيلة مراد وتتعاقب، والأهم من ذلك هو أن صورة البراق لم تكن تغيب عن باله لحظه واحدة، وهو يقطع تلك الرحلة وحيدا إلا من كيسه الذي يحتوي على خلطة سحرية، لم يشك لحظة في أن تحوله إلى مخلوق آخر، وهو يربط بين طائر اللقلق وطائر البراق، رغم الاختلافات الكبيرة بينهما.

ولم يكن في عدته إلا زجاجة من اللبن كان قد أخذها من ثلاجة المطبخ في غفلة من أهله، وبقايا من البن المعصور

مأخوذة من القمامة التي كانت تنتظر شاحنة البلدية لترميها بعيدا عن تلك المدينة الصغيرة.

أخذ يتحسس عدته تلك، وهو يستعيد الحكاية التي سمعها من أمه التي كانت تقول له إن طائر اللقلق ما كان له أن يصبح لقلقا وقد خلقه الله إنسانا، إلا عندما اغتسل باللبن المخلوط ببقايا البن المعصور، ولحظتها فقط تحول إلى ذلك الطائر الملون بالأبيض والأسود وهو لون اللبن والبن، وساعتها سأل مراد الذي كان يسميه أصدقاؤه «البراق»، إن كان الحال -حال البراق- ينطبق على اللقلق؟ لكنه لا يظفر بجواب، ثم أقنع نفسه أن الخلطة السحرية تلك ستحوله إلى براق جميل، وفي النهاية فإن الأعمال بالنيات.

تسارعت خطى الفتى مراد، ولم يعد يخشى مخاطر الجبل والوحوش التي تسكنه والرعاة القساة المتوحشين، وقد أصبح على مشارف تلك القمة التي تشق طريقا إلى السماء، وعندها تقدم في سيره حتى أصبح في المفترق، فوقه الطريق المؤدي إلى القمة وتحته المنحدر الخطير الذي لا يؤدي إلا إلى الهاوية السحيقة، ولم يكن يخشى إلا من تحوله إلى لقلق في النهاية وهو الاحتمال الذي خطر له فجأة، لكن مجال التراجع لم يكن واردا، وهو يخرج من الكيس عدته تلك ويخلط بقايا البن بمحتوى زجاجة

اللبن، ثم ينزع ثيابه ويصبح في هيئة المولود حديثا ويشرع في الاستحمام.. ساعتها شعر بأنه تحول إلى براق حقيقي، ولم تكن الفرحة تسعه عندما قفز في الهواء وهو يحرك جناحيه بكل ما يمتلك من قوة، وعندها تنقطع الصورة.

بعد ذلك تأتي صورة أخرى من المشهد نفسه، فيها شابان في هيئة رعاة، يعثران على كيس فارغ وزجاجة فيها بقايا لبن، وملابس مرمية، وفي الجهة العليا طريق كأنه يؤدي إلى السماء وهو يشق الجبل وفي الأسفل منحدر مخيف، حينها يصرخ أحدهم أنه يلمح في ذلك المنحدر شيئا أحمر يشبه بقايا دم، قد يكون بقايا دم طائر هالك، أو حيوان ضال، أو شخص كانت نهايته مأساوية.

الذي أكلته الرطوبة

لم يكن الأمر في البداية يحتاج إلى أكثر من قرار اعتباطي، لكن المعاناة استمرت سنين عديدة في ظلام وصمت، وجاء الموت الذي كان أبطأ مما يتصوره البعض، واستسلم عماد لقدره المحتوم.

هكذا كان اسم الضحية، بل هذا هو اسمه الكامل، فهو عديم اللقب، لا بحكم علاقة غير شرعية لأبويه، وهو الذي لم يعرف أبوين من لحم ودم، ولم يكن يجهلهما فقط، بل لم يكن لهما وجود في الأصل. ولم يعرف له اسم إلا هذا الاسم، ولم يسأله أحد عن سر هذه الهوية الناقصة، لأنه لم يلتق أي شخص يمكن أن يسأله هذا السؤال، بل لم يلتق أي شخص طيلة تواجده الغريب قبل أن تنال منه الرطوبة وتأكله الصراصير والحشرات التافهة. وأما كيف جاء عماد إلى الوجود، فقد كان ذلك مجرد صدفة، صدفة غريبة جعلته يقضي في هذا الوجود بعض السنين قبل أن يستسلم لمصيره المحتوم في ذلك الصمت الرهيب.

لم يكن ميلاد عماد، إن جاز أن نسميه ميلادا ليتيم، لولا أن السياق العام اقتضى ذلك، فقد كان الأمر كله مبنيا على شخصية محورية هي عمار المحشاش، تلك الشخصية الغريبة التي راهن عليها السارد في بناء رواية غريبة ومتشابكة الأحداث. وكان صاحبها يعتقد بأنها سترفعه إلى مصاف الكتاب الكبار. وكان عمار المحشاش

هذا محور كل الأحداث، أما الشخصيات الثانوية الأخرى فكانت تدور في فلكه، وحدث فجأة ما لم يكن الكاتب نفسه يتوقعه، فلما بلغ السارد الصفحة الواحدة والأربعين وجد نفسه مضطرا لإدخال شخصية روائية جديدة، قد تتطور بعد ذلك وقد تضمحل وتتلاشى، والأمر كله كان مبنيا على لعبة السرد التي لا ترحم في كل الأحوال، وشخصية عماد تمثل ذلك الشخص الغريب بائع فستق العبيد «الكاوكاو» الذي يرمق عمار المحشاش بنظرات غريبة في كل مرة يراه فيها، ويجعله يرتاب من نفسه، وتتأزم حالته أكثر ويدور خياله حول الكثير من الأوهام والتخيلات.

دون أن يفكر الكاتب طويلا، سرح بخياله بعض الشيء، وتخيل أحد المارة وهو ينادي صاحب فستق العبيد ذلك باسم «عماد» دون أي لقب أو كنية إضافية، مثلما تعود الكاتب مع شخصياته الأخرى الأكثر تركيبا والمنحوتة من أسماء تعبق بالمحلية والشعبوية. وهكذا جاء هذا الشخص الغريب إلى تلك البؤرة السردية التي لم تكن في صالحه منذ البداية، وشاءت أقدارتلك المساحة السردية ألا تتطور شخصية عماد كثيرا، فقد تكرر في مرات قليلة جدا، مرة واحدة في الصفحة 101 وأخرى في الصفحة 129 ومرتان في الصفحة 192، ثم خرج من السرد أو

ذاب فيه أو نسيه السارد أو لفظه وتوقف بدون سابق إنذار عن النمو، كأنه أدخل ثلاجة كبيرة عطّلته بالكامل وبشكل مفاجئ.

ولما انتهى السرد وطويت تلك الصفحات المكتوبة بالقلم الجاف على الورق الرديء من نوع البيفتاك، كان السارد الذي تحول بعد ذلك إلى كاتب، يأمل في أن تتحول تلك الخطوط المتعرجة بالقلم الجاف إلى إشارات ضوئية للكومبيوتر، ولم يكن يفهم في تلك التكنولوجيا، حتى يتمكن بعدها من أن يرسل روايته إلى مسابقة معروفة قد تنال حظها من النجاح، أو إلى ناشر ذوّاقة يكتشف عبقريتها، ثم يطبعها على حسابه الخاص، ويقوم بدعاية لها بعد ذلك، تجعل النص يولد باستمرار من قارئ إلى آخر. لكن كل ذلك لم يحدث، وبقي ذلك النص الروائي بشخصية عماد، والشخصيات الأخرى وأهمها عمار المحشاش بكل غرابة أطواره وهوسه المبالغ فيه، تقاوم الغبار والرطوبة في أوراق البيفاك سنة بعد أخرى. وقيل إن صاحبها غادر الحياة نتيجة لحادث مؤلم وقيل إنه هجر الكتابة بعد يأسه من النجاح، وبدأ ذلك النص الروائي يموت شيئا فشيئا في صمت وبطء شديد، ويستسلم لغبار النسيان الذي سلمه إلى الرطوبة والصراصير، ومع الأيام تمكنت تلك الرطوبة والحشرات التافهة من القضاء على

أوراق البيفتاك الرديئة تلك، وكانت الشخصيات التي تحتويها الأوراق تحتضر بطريقة مؤلمة. وشيئا فشيا قضى عماد والصفحات القليلة التي احتوته دون أي مقاومة تذكر، قبل أن يستسلم زميله عمار المحشاش الذي ظل عنيدا كما رسمه صاحبه، فقد كان متواجدا في بقية الصفحات التي أخذت سنوات أخرى قبل أن تتحول في النهاية إلى عدم.

انتقامِ شهرزاد

تنقل المؤرخة، قطر الندى التبريزية المتوفاة في الأهواز نهاية القرن الحادي عشر للهجرة، هذه الحادثة العجيبة، وذلك في مخطوطها المحفوظ في متحف استانبول والمسمى «الجُمان في أخبار ملوك الزمان».

تقول التبريزية إنه جاء في أخبار الملك شهريار، لما فرغت الأميرة شهرزاد من حكاياتها التي روتها فيما يزيد عن الثلاث من السنين، جمع الملك النسّاخ والمؤرخين وأمرهم بتدوين كل ما سمعه من الحكايا، من الألف إلى الياء. لم يبيّن لنا الرواة، كيف جرى التدوين، فمنهم من قال أن الملك لما أخذت الحكايا لبه حفظها عن ظهر قلب، وأعادها على مسامعهم. ومنهم من قال إن الأميرة شهرزاد التي أصبحت بعد الليالي ملكة، جلست تكلم المدونين من وراء حجاب تعيد الحكايا من أولها حتى أتمت روايتها من الذاكرة، ولما أتم النساخ كتابة الكتاب، أسموه «سيرة ألف ليلة وليلة»، أو «السيرة الجميلة لألف ليلة وليلة». ثم سلموه للملك، الذي أدخله خزانته وأغلق عليه بالمفتاح الغلق الأبدي. وحار الناس في هذا التصرف العجيب، دون أن يجرؤ أحد عن سؤاله. لكن ما حدث بعد ذلك فضح الأمر فزال العجب بعد أن عرف الناس السبب.

فاجأ النساخ الملك، بأن بدأ كل واحد منهم يعيد الكتابة والرواية من ذاكرته وتعدد الروايات، وقيل بعدها إن

سبب تصرف ملك الزمان هو أن الحكايا موجهة إليه وتخصه وحده، وقيل إن وراء الأمر سببا آخر، وهو ما جعله ينبه إلى أمر النساخ والمؤرخين وحاول أن يقتلهم جميعا، الأمر الذي شرع فيه بالفعل ومات منهم من مات وتشرد من تشرد.

والملك شهريار، الذي ذهبت حكايات شهرزاد بلبه، وجعلته يقرر تأجيل قتلها في كل مرة، وهو ينتظر على أحر من الجمر حلول الليل حتى تستأنف بقية ما عندها، كان قد أخذته الغيرة، وأراد أن يتولى بنفسه دفة الحكي، وقيل إن الأمر حدث فعلا في الليلة الثالثة بعد الخمسمائة، وقيل حدث في الليلة الستين بعد السبعمائة من الليالي، والأرجح أن الأمر حدث قبل إتمام شهرزاد حكاياتها في كل الأحوال.

وبلغنا أن ملك الزمان، لما قرر أن يتولى دفة الحكي، جلس في مكان شهرزاد وجلست هي في مكانه المعتاد، ولما هم بالحكي، كاد أن يقع في المحظور ويتحول إلى أضحوكة الأزمان، فشهرزاد تبدأ حكاياتها بعبارة «بلغني أيها الملك السعيد، ذو العقل الرشيد»، لكن الملك حار في الديباجة وروي أنه قال بعد تردد «بلغني أيها الأميرة السعيدة ذو العقل الرشيدة»، قبل أن ينتبه إلى الخطأ ويتلعثم من جديد في حضرة الأميرة التي توقفت عن الحكي، أشفقت

عليه وقد مر شطر من الليل، وأقنعته بأن يقول «بلغني» وفقط، ليدخل بعدها في لب الحكاية. ولما فعل ذلك زادت حيرته والعرق يتصبب منه في زمن الشتاء، ورأى أن الحكايا التي يمكن أن تخطر على باله كان قد سمعها منها بالفعل. وهكذا كانت تلك الليلة الأسوأ في عمر شهريار الذي أدرك أنه أدخل نفسه في قفص وأُغلق عليه من الخارج بالمفتاح، والمفتاح خطفه طائر عملاق وطار به إلى جزائر واق الواق. وشعر الملك بالحمى تأكل عظامه، والعرق البارد يتصبب من جبهته قبل أن يأتيه طوق النجاة وشهرزاد تشفق عليه، ليأمرها بعد ذلك بالعودة إلى استئناف حكيها من جديد، وهو يضحك ضحكته الصفراء، ويقول لها أنه كان يمازحها فقط. وما غاب عن ذهن شهريار ولم يغب عن بال شهرزاد أن حادثة تلك الليلة ستصبح جزءا من المتن الليلي، حيث ستتناقلها الألسن قبل أن تكتب في ذلك المخطوط الذي عمد إلى الإغلاق عليه رغبة في وأد حكاية تلك الليلة.

رجل البيفتاك

جلس الكاتب واسمه محمد كاحل في زاوية من غرفته المبعثرة على حافة سريره الغريب وهو يلتفت إلى النافذة بين الفينة والأخرى كأنه ينتظر شيئا مهما، وليس في عدته سوى بضع من الأوراق من نوع البيفتاك وقلم حبر جاف أزرق مكسور في الأسفل إلى درجة أن مستعمله إذا أراد كتابة شيء ما فعليه الإمساك بشيء من القلق بأسفل ذلك القلم.. كانت في ذهنه بعض القصص والحكايا التي تسيجه بإحكام ولا تدعه يولد منها شيئا أو الفكاك منها، إلا في محاولات قليلة جدا يحاول أن يدخل فيها من باب مختلف وسرعان ما يؤدي به ذلك المدخل إلى ما يشبه الساحة التي تلتقي فيها كل الحكايا التي تسكن رأسه منذ أمد ويختلط عليه الأمر ثم يكاد ييأس من أمره لولا ذلك العناد الذي طالما ميزه عن أقربائه الذي جعله يحاول مرات أخرى من باب آخر يراه في البداية مختلفا ليجربه لعل وعسى يؤدي به إلى بر لا يعرفه، وأصبح يخشى مع تعدد المحاولات الفاشلة أن يلمح في طريقه شيئا مألوفا لديه وهو ما يعني الذهاب بخطى متثاقلة فاشلة إلى اليأس من العثور على ممر آمن يؤدي إلى حكاية قد تسحر المتلقي عند الانتهاء من تحبيرها على ورق البيفتاك ذاك.

بعد الكثير من محاولات الاقتحام الفاشلة رمى بالقلم جانبا بعدما كاد يمزقه لكنه لم يفعل وحدق طويلا في

ما وراء النافذة، ثم فجأة بدون وعي منه امتدت يده إلى قلم الحبر الجاف يمسكه من الأسفل بعناية حتى تسهل الكتابة به، ثم أخذ الورق وبدأ يكتب بكثير من القلق وقد دخل من بوابة حديدية بلون صدئ بزجاج مكسور وسياج كثيف.. دفعه بشيء من القلق البادي عليه، ثم دخل ليجد سلما متسخا حتى كاد يعود أدراجه، لكنه تجاهل الأمر وبدأ يتقدم خطوة فأخرى إلى أن وجد نفسه في الطابق الثاني أمام ثلاثة أبواب متقابلة ولم يتوقف طويلا ليتردد في أي الأبواب سيقتحم، فقد وجد بابا مفتوحا دون غيره فاقتحمه وبدأت خطواته تسمع مع نبضات قلبه المتسارعة فلأول مرة يقتحم بيتا على طريقة اللصوص ولم يكن يسأل نفسه إن كان خائفا أو مترددا فقد كان في حالة تستعصي على الفهم.

وجد البهو فارغا فكاد يعود أدراجه لولا إحساسه بشيء غريب في الغرفة المجاورة التي سار إليها ليدفع الباب بدون مبالاة، فيدخل غرفة مبعثرة وفي أقصاها شخص كأنه يعرفه يجلس على حافة سرير غريب وهو يلتفت إلى النافذة بين الفينة والأخرى وكأنه ينتظر شيئا مهما، وليس في عدته سوى بضع أوراق من نوع البيفتاك وقلم حبر جاف أزرق مكسور في الأسفل إلى درجة أن مستعمله إذا أراد كتابة شيء ما فعليه الإمساك بشيء من القلق

بأسفل ذلك القلم.

وقعت العينان على العينين، وأحس كل منهما أنه يعرف الآخرعز المعرفة أوكأنه رآه في مكان ما. أراد أن يكلّمه لكن لسانه لم يطاوعه، وهبّ إليه يريد أن يحضنه أو يخنقه ولم يجد أمامه سوى فراغ البهو. فأخذته رجلاه إلى باب الشرفة يريد إنهاء وضع لم يعد يطيقه.

محرقة الكتب الكبرى

يذكر البعض تلك المحرقة التي استهدفت كتاب /ألف ليلة وليلة/ لسبب لا يتعلق بما يشبه محاكم التفتيش التي تحاول أن تؤطر عقول الناس وتملي عليهم ما يقرؤون، وإنما لسبب أكثر غرابة هو محاولة إنقاذ البشرية من خطر كبير كان يهددها، والبداية كانت عندما اعتقد الكثير من أصحاب الشاحنات التي تسافر في الصحراء، أن الأمر يتعلق بمركز جديد للأبحاث الذرية، لكن بعضهم أكد بأن ما سمي بالمركز لم يكن في ذلك المكان قبل أسبوع، فكيف أنشئ بتلك السرعة الفائقة؟، ورأى البعض أن الأمر يتعلق بقاعة ألعاب كبرى تشبه القاعة البيضاوية الموجودة في الجزائر العاصمة، لكنها كانت أكبر بكثير، وبدأ البعض يتحدث عن الصحون الطائرة وزوّار الفضاء وتكلم آخرون عن ممالك الجن التي تشيد في مثل تلك الأماكن الصحراوية البعيدة، ولما تقدم بعض المتهورين إلى ذلك الشكل الغريب من أجل اكتشاف سره، زاد عجبهم، وقد اقتنعوا أن الأمر يتعلق ببيضة عملاقة، وتخيلوا شكل أنثى الطائر التي باضتها، فساد الرعب وعادوا من حيث أتوا ليخبروا المسؤولين بما رأوا، وفي الأيام المقبلة بدأت وسائل الإعلام تتحدث عن الخطر القادم المتمثل في طائر /الرخ/ الذي يشبه النسر لكن حجمه أكبر من حجم النسر بأضعاف غير منتهية.

تحدث البعض عن طائر واحد وأكد آخرون أن الأمر يتعلق بأسراب من طيور الرخ يمكن أن تهجم دفعة واحدة وتقضي على الحياة في هذه المنطقة، ووضعت القوات العسكرية في حالة تأهب قصوى، ثم حدث ما كان يخشاه السكان.. احتجبت الشمس وساد ظلام كثيف، وعرف الناس أن الرخ هو من تسبب بحجمه الكبير في حجب الضوء وانهارت النظرية التي تقول بأن الرخ طائر خرافي لا يمكن أن يوجد في الواقع، وفي تلك الأوضاع الكارثية، انظم العرّافون إلى جماعة المقررين، وعرفوا الناس أن أصل طائر الرخ هذا في الأصل خرافي، ووجد لأول مرة في كتاب ألف ليلة وليلة في حكاية السندباد التي تؤكد بأن هذا الطائر يطعم فراخه أفيالا، وقال العرّافون إن السبيل الوحيد للقضاء على الطائر وسلالته هو حرق مصدره (كتاب ألف ليلة وليلة)، ودون انتظار بدأت المحرقة التي قضت على آلاف النسخ من طبعات كثيرة متنوعة وبلغات مختلفة، ولم يكتف الحارقون بذلك الكتاب بل شملت التوصية كل الكتب التي تذكر ذلك الطائر أو حتى تشير إليه، ولما اختلط الأمر بدأت عملية إعدام كل الكتب الجميلة واندلعت النيران في كل المكتبات العمومية والخاصة، إلى أن أصبح الكتاب مجرد ذكرى، وبعد أيام من ذلك أشرقت الشمس من جديد لكن بيضة الرخ بقيت في مكانها وبقي خطر عودة

الرخ مسيطرا على الأجيال القادمة، بل سيطرت خرافات أخرى كثيرة على عقول الناس بفعل الجهل الذي سببته محرقة الكتب الكبرى تلك .

إلى بورخيس

ملكان وثلاث متاهات

ينقل إلى لساننا العربي رجل جدير بالثقة هو المترجم إبراهيم الخطيب، عن رجل آخر غير جدير بالثقة لما لفق من أكاذيب وهو الأعمى الأرجنتيني بورخس ما نسبه إلى من وصفهم بالرجال الجديرين بالثقة فيما يتعلق بحكاية المتاهتين، فأما الأولى فهي اصطناعية وقد بناها ملك من جزر بابيلونيا الذي أمر مهندسيه وسحرته ببناء تلك المتاهة الإصطناعية، قال أن الشجعان لا يغامرون بدخولها وأحدث بذلك ما يشبه الفتنة بين الناس لأن متاهته تلك في إدهاشها تحاكي المخلوقات الإلهية المدهشة، ولما انتهى ملك بابيلونيا من بناء متاهته تلك جاءه أحد الملوك العرب، فأراد أن يذله بأن يدخله تلك المتاهة التي رأى أنه سيهلك فيها لا محالة، لكن ذلك الملك العربي لم يتوسل ولم يشتكي مثلما كان يتمنى ملك بابيلونيا بل طلب العون الإلهي الذي دله على باب الخروج من تلك المتاهة بسهولة تامة.

ولما خرج الملك العربي من متاهة ملك بابيلونيا أخبره بأنه يمتلك في الصحراء متاهة أفضل وهي متاهة طبيعية ودعاه إليها بالقوة، فقد أمر جيوشه بتدمير مملكة بابيلونيا وأخذ ملكها أسيرا، ثم أدخلته تلك المتاهة الطبيعية وهي عبارة عن صحراء سرمدية، ولما أدخله أياها فك قيوده وكانت النتيجة الطبيعية هي هلاك ملك بابيلونيا جوعا

وعطشا.

وقبل أن يختم حكايته الملفقة تلك بكلام واعظ مزيف قائلا: «المجد للحي الذي لا يموت» يكون صاحبنا الأعمى قد قدم لنا في الظاهر نموذجين من المتاهات، طبيعية واصطناعية، منتصرا إلى الماهة الطبيعية للملك العربي التي -حسبه- لا تضاهيها متاهة أخرى، لكن الحقيقة أن صاحبنا لم يكن همه تسليتنا بالحديث عن متاهة ملك بابيلونيا ومتاهة الملك العربي الطبيعية، فإن كان الملك العربي قد نجا بقدرة قادر من المتاهة الاصطناعية وملك بابيلونيا وقع في شر أعماله، فإن بورخيس في الحقيقة من خلال تلك الحكاية الملفقة أصلا يكون قد صنع بإحكام متاهة أخرى، استخدم فيها الطبيعة والصناعة، فتلك الحكاية الملفقة ليست من التسلية في شيء، وإنما هي رغبة تفوق سادية ملك بابيلونيا المزعوم وغريزة انتقام الملك العربي المفترض، وباب المتاهة الأول ندخله بأمان وبخبث الحكواتي عندما نثق في الرجال الذين يقول إنه ينقل عليهم، ثم يدخلنا إلى متاهة ملك بابيلونيا ونكاد نموت لولا لطف الله مع الملك العربي، ثم يحملنا ذلك الملك العربي مع ملك بابيلونيا المأسور حيث نموت معه جوعا وعطشا، ولما يتمكن منا الجوع والعطش في المتاهة الطبيعية وهي الجزء الثاني من المتاهة البورخيسية، نرى

الأعمى يكاد يموت ضحكا وهو يكلمنا بتلك الروح التي ظاهرها الوعظ وباطنها التشفي: «المجد للحي الذي لا يموت». ألسنا في الأخير أسوأ حالا من الملكين؟ ثم أليست المتاهة المستترة أسوأ من المتاهتين؟

الكتاب الأبيض

تؤكد معلومات متواترة أن فكرة «الكتاب الأبيض» في أساسها غير تلك المتعلقة بالكتب السياسية التي يراد منها تبرئة الذمة وغسل الأيدي من بعض الجرائم التي تحدث في حق البريئين من الناس في الحروب والفتن الكبرى التي ما زال من يعاني منها عالمنا.

هي مقتبسة من ذلك الكتاب الذي شاع في بداية القرن التاسع عشر الميلادي في إحدى المدن الهندية وقيل فيما سمي بعد ذلك بإقليم «جامو –كاشمير» المتنازع عليه منذ انفصال دولة باكستان عن الهند في النصف الثاني من أربعينيات القرن العشرين.

والشيء الثابت أن «الكتاب الأبيض» لم يكن أبيض في البداية، بفعل نوعية الأوراق التي كانت سائدة آنذاك، وهي من النوع الأصفر الفاقع. وصاحب فكرته هو شخص كان إقطاعيا في منطقته ويمتلك آلاف الهكتارات من الأراضي التي كانت مليئة بأشجار الفواكه والأنهار التي تجري في كل فصل، واسمه علي أكبر خان. وتقول الروايات إن علي أكبر خان وكان هذا هو اسمه، نشأ عبدا قبل أن يحصل على حريته، وهو في سن العشرين وأصبح بعد سنين من ذلك الوارث لسيده صاحب الهكتارات التي لا تعد والأموال الطائلة والقصور الساحرة.

ونقل إلينا أناس ثقاة أن الإقطاعي أكبر خان نشأ أميا لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك كان مهووسا بالكتب. ولما أصبح أميرا في منطقته مالكا للبلاد ورقاب العباد، بقي شيء في نفسه لم يخففه وكان بمثابة العقدة التي تطارده في حله وترحاله.

كان يحسد المتعلمين والعلماء على علمهم، وأراد أن يكون واحدا منهم لكن أوان العلم قد فاته وبقي شيء في تركيبته النفسية يعيقه عن تلقي العلم رغم أنه أتى بالكثير من المعلمين من كل حدب. وفشل كل الذين جلبهم في تعليمه حرفا واحدا وكأن رأسه كان يرفض دخول الحروف.

وازدادت عقدته مع الأيام وقرر أن يعدل عما كان يفكر فيه، لكنه بقي يشتري الكتب النادرة وغير النادرة ويكتنزها في مكتبته الضخمة التي شيدها من الخشب النادر ومن الزرابي الفارسية الساحرة. وكان يقضي فيها الكثير من وقته، يتجول بين رفوفها ويمسك ببعض الكتب التي تحتويها والتي كان الكثير منها مجلدا بجلد الغزال الغالي الثمن.

وتقول الأخبار المتواترة إن علي أكبر خان كان في إحدى المرات في المكتبة في عزلة دامت يومين كاملين دون انقطاع لا يدخل إليه إلا أمين سره، والخادم الذي يأتي إليه بالطعام. عندها خطرت على باله فكرة عجيبة، أمر بتنفيذها فورا، فقد صنعوا له أجمل الكتب على الإطلاق مزخرف في غلافه الخارجي بالذهب ومجلّد بجلد نوع نادر من الغزلان، وأهم ما فيه أنه لم يكن له أي شيء مكتوب في غلافه وكانت صفحاته التي تزيد عن الخمسمائة فارغة تماما من أي حرف، ولم يكن أحد يفهم ماهية ذلك الكتاب وماذا كان يدور في خلد السيد أكبر خان عندما تسلمه وكان ذلك من أجمل اللحظات في حياته.

أصبح السيد علي يجلس في تلك المكتبة الضخمة ويحيط نفسه بالناسخين، ثم يفتح كتابه الأبيض ويقرأ من تلك

الصفحات البيضاء ما لم يكن يره أحد ويملي عليهم مما يجعلهم يدوّنون كتابا جديدا ببعض التنقيح طبعا، والأغرب في الأمر أنه كان يجلس في كل مرة ويقرأ لهم ما لم يكن يقرأه من قبل. وكانوا في كل مرة يدوّنون الكتاب تلو الآخر ويرسلوا ما نسخوه إلى المطبعة. وفي أشهر قليلة أصبح لعلي أكبر خان الكثير من الكتب التي أملاها والتي أخذت أغلفتها اسمه وما هو بكاتب بل ولم يكن يقرأ إلا ذلك الكتاب الأبيض.

نُشرت بجريدة «اليوم» الجزائرية سنة 2006

الفهرس

تقديم	5
حافة الجبل	9
حضن لجميلة	19
ما وراء التغطية	27
عيادة حتشبسوت	35
Game over	41
الطائر في عشه الأخير	47
الذي أكلته الرطوبة	53
انتقام شهرزاد	59
رجل البيفتاك	65
محرقة الكتب الكبرى	71
إلى بورخيس «ملكان وثلاث متاهات»	77
الكتاب الأبيض	83

للنشر والتوزيع